المقالة العاشرة
فی قوله سبحانه : ﴿و لایؤده حفظهما﴾

و فیه فوائد :

الفائدة الأولی
فی اللغة

«لایؤده» أی : لایثقله و لایشق علیه . یقال : آده ، یؤوده ، أوداً : إذا أثقله و أجهده . و أدت العود ، أوداً : إذا اعتمدت علیه بالثقل حتی أملته . و [أدت العود] أؤده ، فانآد . نحو : عجته فانعاج . و : الأود و الأوداء علی وزن الأعوج و العوجاء و المعنی واحد . و الجمع : الاود کالعوج . و المعنی : لایثقله و لایتعبه حفظ السموات و الأرض .

الفائدة الثانیة
فی النظم

لما عظّم الله تعالی أمر السماء و ما فیها و الأرض و ما فیها سابقاً بأن نسب و أضاف ما فی کلّ منهما الی ملکه و سلطانه ، ثمّ عظّم أمر الکرسی بأنّه وسع السموات و الأرض ، إذ کما أنّ الکرسی بطبیعته الجسمیّة المحددة للأمکنة و الأزمنة محیط بما فی داخله ـ لا کمجرّد احاطة الظرف بالمظروف محدداً کان المکان المحاط علیه أم لا ، بل بأن لایتعیّن للمحاط علیه مکان أو حیّز أو وضع أو ما شئت فسمّه إلّا بسبب طبیعة جسمیّة بخصوصها ـ فکذلک بحقیقته العقلیّة و النفسیّة و روحه و قلبه الذی هو مستوی الرحمن مؤثّرة فیما دونها من النفوس و الطبایع الفلکیّة و العنصریّة و ملکوت العالم السفلی ـ من الجماد و النبات و الحیوان ـ و لذلک تنبعث الأرزق والآجال من هناک و ترتفع الدعوات لطلب الحاجات الی ذاک ، فأراد أن یشیر الی أنّ ذلک لایشق علیه و لاینوء به فقال : ﴿و لایؤده حفظهما﴾ . أی : لایتعب الکرسی و لایشق علی ظاهر حقیقته و باطن قلبه حفظ أجسام السموات و الأرض و حفظ نفوسها و طبایعها و صورها ـ إن کان الضمیر راجعاً الی «الکرسی» ، أو لایتعبه تعالی حفظهما بالکرسی علی الوجه المذکور ـ إن کان الضمیر راجعاً الیه سبحانه ـ کما لایؤد الروح الانسانی حفظ أسرار السموات و الأرض و معانیها التی أودعها الله فی السرّ الانسانی بقوله تعالی : ﴿و علّم آدم الأسماء کلّها﴾(البقرة(٢) : ٣١) .

و تحقيق هذا المطب يحتاج الى مزيد تقرير له ليظهر لک بالبرهان كيفية دوام الممكن بدوام علّته الفيّاضة من غير تعب و ملال و أودة و كلال، و هذا هو الذى وعدناه آنفاً، فاستمع و عه.

الفائدة الثالثة

[الكرسى صورة رحمانيّة الله تعالى]

اعلم أنّ للحق تعالى أسماء و صفات، و لكلّ منهما مجالى و مظاهر فى كلّ من العوالم، من أحصاها ـ أى عرفها و عرف لوازمها و آثارها و بدايتها و غايتها ـ وجبت له الجنة، و هى الكمال العلمى العرفانى، أى العلم بحقائق الأشياء كما هى عليها الموجب لمشاهدة المثل العقليّة و الأشباح الجنانيّة الموعودة ـ انشاءالله ـ جزاء لصالح العمل و مرضى السعى.

فكما أنّ عالم الجبروت من الملائكة العقليّة ـ بجملة عددها الكثيرة و ضروبها التى لايحيط بها غيرالله ـ هو عالم قدرة الله تعالى و مظهر جباريّته و مستوى اسم «الجبار»، كذلک «عالم الكرسى» بجملة ما فيها من ملكوت السموات و الأرض «عالم رحموته» و مظهر رحمانيّته و مستوى اسم «الرحمن»، إذ برحمته قامت السموات و الأرض، فالكرسى صورة رحمانيّة الله تعالى على الخلائق و بها يعطف بعضهم بعضاً بالترتيب الحكمى و النظم السببى والمسبّبى، فلكلّ سبب خاص عطوفة و رحمة على مسببه بايجاده واقامته و حفظه و ادامته.

ثمّ اعلم أنّ العلّة الفاعليّةبحسب المشهور على ضربين:

أحدهما: الفاعل الذى يحتاج فى فاعليّته الى حركة و آلة و قابل كالكاتب و البناء و مثل هذا الفاعل يقال له فى عرف الالهيين بـ«المعدّ» و «المحرّک» و هى العلّة بالعرض.

و ثانيهما: الفاعل الذى لايحتاج الى حركة و آلة جسمانيّة و قابل و هو الفاعل فى عرفهم و إن سئلت الحق فليس الفاعل بالحقيقة إلّا ما هو برىء بالكلية عن جهة الامكان، و ما هو إلّا الواحد الحق ـ كما مرّت الاشارة اليه.

فالفاعل بالمعنى الأوّل لتعلّقه بالمادة الجسمانيّة و تحرّكه عند تحريكه يلحقه لامحالة كلال و أعياء و دثور و فناء، لأنّ الجسمانيّات متناهية الذوات، متناهية القوى و الانفعالات، كما أنّها متناهية الامتدادات و الاتصالات، فيصحبها الكلال أوّلا ثمّ الزوال ثانياً، وقد صرّح بعض الحكماء بأنّ الفاعل الجسمانى قابل فى الحقيقة لفعله لمباشرته

إيّاه، و أمّا القوى الفعّالة المتقدّسة عن شوب الانفعال المادى، المرتفعة عن حضيض العالم السفلى، فهى مسلوبة التغيّر عن حالها، ممتنعة التجدّد فى فعالها، بريئة الذوات عن لحوق معنى عارض يوجب كلالها و ملالها، أو مضادّ مفسد يقتضى فسادها و زوالها.

فهى وسائط فيض الحق و روابط جوده و مكثر جهات رحمته و مفنّن شعوب فضله وجوده، فهى بالحقيقة عباد الرحمن المؤتمرون بأمره، المتزجرون بنهيه و زجره، كما وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿لايعصون الله ما أمرهم و يفعلون ما يؤمرون﴾(التحريم(۶۶): ۶).

بخلاف الفاعل بالمعنى الأوّل، فانّه لوقوعه فى عالم الأضداد و تصادم صور المواد ربّما يعوق عن فعله المقصود لمانع، و يقطع عن طريقه المصمود اليه لقاطع.

و إن أردت زيادة التوضيح فقد أودع الله تعالى فى نفسك هذين الضربين من التأثير، أى: الابداع و التحريك و هو المسمّى بالاحداث أيضاً، لأنّ الحدوث يعرض الحركة بالذات و لمّا يقترنه بالعرض.

فـ«الابداع» ايجاد شىء لا عن شىء، و مثاله فيك تصورك للأشياء بقوّتك المصوّرة و مثولها بين يديك فى عالمك الخاص على وجه يكون وجودها لك نفس مشاهدتك إيّاها، و «الاحداث» هو جعل الشىء شيئاً، و مثاله فيك تكلّمك و كتابتك بآلات و أسباب طبيعيّة أو غيرها.

ففى الضرب الأوّل لايصرف منك شىء إلّامجرّد الالتفات و العناية، و فى الثانى يصرف منك المادة و الآلة و الزمان و القوة شيئاً فشيئاً، فيحصل منه المفعول تدريجاً و يكمل عند انقضاء الحركة و الزمان، و هما مقدار خروج المادة الى الفعل، و توجّه القوة و الآلة نحو الكمال، تقرّباً الى المبدأ الفعّال.

فاذا علمت هذين الضربين من الفاعليّة، و علمت خصوصيّة كلّ منهما و امتيازه عن صاحبه بخواص و لوازم، ظهر لك أنّ التعب و المشقة و الأودة لايعرض إلّا لفاعل جسمانى لايفعل إلّا بأن ينفعل و يتحرّك من حال الى حال، و يكون فاعليّته على سبيل المباشرة.

و أمّا الذى فاعليّته لشىء بحيث إذ أراد أن يقول له: ﴿كن فيكون﴾، أى يكون مجرّد ارادة الفعل منه مقتضياً لحصول فعله من غير أمر زائد يكون متوسطاً بينه و بين فعله ـ كايجاده تعالى عالم الأمر أو يكون الوسط حاصلا بأمره من غير مدخليّة مادة و استعداد و حركة كايجاده لجواهر السموات و الأرض بواسطة أمره ـ أو مع مدخليّتها ـ كايجاده حوادث الفلكيّة و الأرضيّة بافادة الاسباب و افاضة الاستعدادات و الحركات من غير تغيّر فيه

تعالى، و اليه أشار بقوله سبحانه : ﴿و لا يؤده حفظهما﴾ اى لا يتعبه ادامة جواهر ما فى السموات و ما فى الأرض . هذا، إذا كان الضمير المفعول كناية عنه تعالى، و أمّا إذا كان راجعاً الى «الكرسى» ، فالحكم بعدم عروض التعب و المشقّة ثابت للكرسى، لأنّه بحقيقته و ذاته من وسائل جوده تعالى و ربانيّته و جهات كرمه و رحمانيّته التى لاتبيد و لاتنقص أبداً، فلايلحق له مشقة و تعب، و إذا لم يحصل له فاستحال حصوله للحق بالطريق الأولى .

و بالجملة كلّ ما هو علة لشىء بالحقيقة و الذات ـ لا بحسب القسر للاعداد و الاستعداد فيكون المعلول من توابع ذاته و رشحات وجوده بمنزلة الظلّ للشخص، فكما لايثقل و لايشق وجود الظلّ على الشخص و استتباعه إيّاه، فكذلك المعلول بالقياس الى ما هو علّة له بالذات، و هذه الأسباب التى يظن الناس أنّها علّة إنّما يؤدها وجود ما ينسب اليها، لأنّها ليست عللا بالحقيقة، بل بحسب المجاز، و ما هو علّة بالحقيقة لايلحقه الفتور فى تأثيره، اللّهم إلّا أن يكون بحسب نفس الأمر ناقصاً ضعيف الوجود .

فاعتبر بالكتابة الصادرة من الكاتب، فانّ جوهر الانسان كاتب بالعرض لا بالذات، و لهذا يلحقه التعب و الملال، و أمّا الكاتب بما هو كاتب ـ و هو أمر مركّب من جوهر الانسان و أمور أخرى، بعضها نفسانيّة و بعضها طبيعيّة و بعضها خارجيّة من الآلة و الحركة و القابل و غيرها ـ فلايحصل التعب للجموع إلّا من جهة تصادم وقع بين أجزائه، و تعارض قد حصل فى العضو الواحد بين مقتضى الطبيعة و مقصود الارادة، فانّ مقتضى الطبيعية التى فى العضو الثقل أى الميل الى مركز العالم و مقصود الارادة الحركة الى جهات مختلفة فيحصل له الأعياء، فيملّ الانسان من الكتابة قبل أن يحصل بها الاكتفاء و عنها الغناء، و أمّا الأمور التى تجرى مجرى التصورات المحضة و التمثلات، فحصولها من الانسان لايشق عليه، لأنّها إنّما صدرت منه بجهة واحدة فاعليّة ذاتيّة من غير تعارض الجهتين، فيكون هناک نفس التصورّ و الارادة الشوقيّة نفس الحصول فى صقع من النفس .

فمن هذا السبيل يجب أن يعتقد فاعليّته تعالى للأشياء و فاعليّة ملائكته المقرّبين و ملائكته المدبّرين، فانّ صدور الموجودات عنه تعالى ـ كلية كانت أو جزئية، روحانية كانت أو جرمية ـ نفس تعقّله إيّاها كما حقّق فى موضعه، و كذا فاعليّة من هو فى عالم جبروته و صقع ملكوته، فمن اعتقد فاعليّته تعالى على هذا الوجه و أعلى منه آمن من التجسم فى حقّه الموجب للعذاب الأليم .